

الفصل الثالث

مرويات الأدباء والنقاد

خص الجاحظ في كتابيه البيان والتبيين والحيوان بعض النصوص الشعرية بالتفرد والتميز، ولذلك جعلها صالحة للرواية، حسنة للمذاكرة والتداول والإنشاد، وهي نصوص تأتلف فيها الصورة الفنية بالمضمون الحسن، من ذلك قول عبدة بن الطيب^(١):

وَاعْصُوا الَّذِي يُلْقِي الْقَنَافِدَ بَيْنَكُمْ مُتَنَصِّحاً ذَاكَ السَّمَامُ الْأَنْفَعُ^(٢)
يُزْجِي عَقَارِيهَ لِيَبْعَثَ بَيْنَكُمْ حَرْباً كَمَا بَعَثَ الْعُرُوقَ الْأَخْدَعُ^(٣)

(١) عبدة بن الطيب، والطبيب اسمه يزيد بن عمرو بن وعلة ينتهي نسبه يزيد مناة بن تميم. وعبدة شاعر مجيد ليس بالمكثر، وهو مخضرم، أدرك الإسلام فأسلم، وكان في جيش النعمان بن المقرن في حرب الفرس في المدائن، وكان فارساً شجاعاً في هذه الفتوح، ترفع عن الهجاء في شعره شرفاً ومروءة، إذ كان يراه ضعة. (الأغاني ٢١/٢٦).

(٢) السَّمَامُ: جمع سَمٍ، والمنقع: الناقع، وهو البالغ الثابت المعتقد. ويلقي القنافة: معناها: «يشبه النعام المداخل والدسيس بالقنفذ لخروجه بالليل دون النهار، لاحتياله للأفاعي» (الحيوان ١٦٧/٤).

(٣) الأخدع: عرق في صفحتي العنق، وهو شعبة الوريد، والمقصود أن التمام يسوق أحاديثه ويمد أعوانه بها بين الناس كما يمد الأخدع العروق بالدم.

حُرَّانَ لَا يَشْفِي غَلِيلَ فَوَادِهِ عَسَلُ بِمَاءٍ فِي الْإِنَاءِ مُشَعَّعٌ^(١)
لَا تَأْمَنُوا قَوْمًا يَثِيبُ صَبِيهِمْ بَيْنَ الْقَوَابِلِ بِالْعَدَاوَةِ يُشْعُ^(٢)

ثم قال عبدة بن الطبيب في صلة الأبيات التي ذكر فيها القنفذ والنميمة:

إِن الَّذِينَ تَرَوْنَهُمْ خِلَانَكُمْ يَشْفِي صُدَاعَ رُؤُوسِهِمْ أَنْ تُصْرَعُوا
قَوْمٌ إِذَا دَمَسَ الظُّلَامُ عَلَيْهِمْ جَدَعُوا قَنَافِدَ النَّمِيمَةِ تُمَزَعُ^(٣)

قال الجاحظ مميّزاً لهذه الأبيات: «وهذا الشعر من غرر الأشعار وهو مما يحفظ»^(٤).

ومن ذلك أيضاً أبيات في مدح أسيلم بن الأحنف الأسدي، وكان ذا بيان وأدب وعقل وجاه، وهي التي يقول فيها الشاعر^(٥):

أَلَا أَيُّهَا الرُّكْبُ المَخْبُونُ هَلْ لَكُمْ بَسِيدُ أَهْلِ الشَّامِ تَحْبُوا وَتَرْجَعُوا
أَسَيْلِمُ ذَاكُمْ لَا خَنَا بِمَكَانِهِ لَعِينُ تُرَجِّسِي أَوْ لِأُذُنٍ تَسْمَعُ
مِنَ النَّفْرِ البَيْضِ الَّذِينَ إِذَا انْتَمَوْا وَهَابَ الرَّجَالُ حَلْقَةَ البَابِ قَعَقَعُوا^(٦)
جَلَا الأَذْفَرُ الأَحْوَى مِنَ المَسْكَ فَرَقَهُ وَطِيبُ الدَّهَانِ رَأْسُهُ فَهُوَ أَنْزَعُ^(٧)

(١) الحران: الشديد التلهب، الذي يغلي جوفه من شدة الغيظ وحرارته، والغلة: شدة العطش، والمشعشع: الممزوج.

(٢) القوابل: جمع قابلة، وهي التي تستقبل المولود، والنشوع: الدواء يوضع في فم الصبي كرهاً.

(٣) جدعوا: تفرقوا في كل وجه، تمزع: تمر مرّاً سريعاً.

(٤) الجاحظ: الحيوان ٤ / ١٦٧-١٦٨. والأبيات من قصيدة من أجود شعر عبدة بن الطبيب الإسلامي، اختارها المفضل الضبي (مفضلية رقم ٢٦) وغيره. (انظر حاشية ديوانه ص ٤٢).

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين ١ / ٣٩٦. وهذه الأبيات استحسناها أسيلم نفسه وعبد الملك بن مروان كذلك، إذ قال لأسيلم: «ما قال أخو الأوس أحسن مما قيل لك» (الكامل ١ / ١٨١).

(٦) جعلهم نقرأ لقلتهم، والكرام قليل.

(٧) الأذفر: الشديد سطوع الرائحة، والأنزع: الذي انحسر الشعر عن جانبي جبهته.

إذا النَّفْرُ السُّودُ الِيمانون حاولوا له حَوْكُ بَرْدِيهِ أَرْقُسُوا وَأَوْسَعُوا^(١)
قال الجاحظ: «وهذا الشعر من أشعار الحفظ والمذاكرة»^(٢).

وإذا كان انعطاف الجاحظ إلى النموذجين السابقين استطراداً في مناسبة فكرة خاصة، فإن له وقفة ذات أناة وقصد لهذا الإحسان في الأبيات المنفردة المعاني، إذ يقول: «ونذكر هنا أبيات شعر تصلح للرواية والمذاكرة»^(٣) وهي كما يلي:

قال سويد المرثد الحارثي أو غيره^(٤):

بني عَمَّنَا لَا تَذْكُرُوا الشُّعْرَ بَعْدَمَا دَفَنْتُمْ بِصَحْرَاءِ العُمَيْمِ القَوَافِيَا
فَلَسْنَا كَمَنْ كُنْتُمْ تُصِيبُونَ سَلَةً فَتَقْبَلُ ضَيْمًا أَوْ نُحَكِّمَ قَاضِيَا^(٥)
وَلَكِنَّ حُكْمَ السَّيْفِ فِيكُمْ مُسَلِّطٌ فَنَرُضِي إِذَا مَا أَصْبَحَ السَّيْفُ رَاضِيَا
وَقَدْ سَاءَ نِي مَا جَرَّتِ الحَرْبُ بَيْنَنَا بَنِي عَمَّنَا لَوْ كَانَ أَمْرًا مُدَانِيَا
فَإِنْ قُلْتُمْ إِنَّا ظَلَمْنَا فَلَمْ نَكُنْ ظَلَمْنَا وَلَكِنَّا أَسْنَا التَّقَاضِيَا^(٦)

وقال ضابيء بن الحارث^(٧):

(١) نفر السود اليمانون، وصفهم بذلك لأن اليمانية يوصفون بالسواد.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ٣٩٦.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ١٨٦-١٨٧.

(٤) وتروى الأبيات للشميد الحارثي، والشميدز دابة، وليست عربية صحيحة. وسويد بن صميع

المرثدي من بني الحارث بن كعب، شاعر فارس، ويقال إنه إسلامي، ومناسبة هذه الأبيات أن

أخاه قتل غيلة، فقتل سويد قاتل أخيه نهاراً في بعض الأسواق من الحضر.

(٥) تصيبون سلة: تالونهم سرقة.

(٦) انظر شرح الأبيات مفصلاً في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٢٤-١٢٦.

(٧) ضابيء بن الحارث من البراجم كان رجلاً بدياً كثير الشر، وكان بالمدينة وكان صاحب صيد،

مات في سجن عثمان بن عفان بشعر فاحش قاله. (ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/

١٧٢-١٧٤).

وربَّ أمورٍ لا تُضيرُكَ ضيرةً وللقلبِ من مخشاتهاً وجيبٌ
وقال حارثة بن بدر^(١):

وقل للفرّادِ إن نَزَا بك نزوةً من الرُّوعِ أفرخِ أكثرَ الرُّوعِ باطله
وقال لييد:

واكذبِ النَّفسَ إذا حَدَّثَتْها إن صدقَ النفسَ يُزري بالأملِ
وقال حبيب بن أوس:

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحيِّ مُخلوقٍ لذيّاجتيةٍ فاغتربِ تتجدّدِ
فإني رأيتُ الشَّمسَ زِيدتْ مَحَبَّةً إلى النَّاسِ أنْ لستَ عليهمَ بِسَرْمَدِ
وقال غيره:

هو الشَّمسُ إلا أنْ لِلشَّمسِ غَيْبَةٌ وهذا الفَتَى الجَرْمِيّ ليسَ يَغِيبُ
يَرُوحُ وَيَعْدُو ما يُفْتَرُ ساعةً وإن قِيلَ ناءٍ فهو مِنْكَ قَرِيبُ
وقال آخر:

خلافاً لقولي من فيالته رأيه كما قيل قَبْلَ اليومِ : خالف فتذكرا
وقال حارثة بن بدر:

إذا مَتُّ سَرُّ بني تميمِ على الحدَثانِ لو يلقون مشلي
عدوُّ عدوِّهم أبداً عدوي كذلك شكّهم أبداً وشكلي

(١) حارثة بن بدر بن حصين بن قطن . . . التميمي القداني، شاعر مخضرم، أدرك الإسلام فأسلم، ويقال إنه مات غرقاً في ولاية عبد الله بن الحارث على العراق سنة ٥٦٤هـ، وكان رجل تميم في وقته (الشعر والشعراء ٧٣٨/٢، الإصابة ١٦١/٢ أمالي المرتضي ٢٨٢-٢٨٣).

وهذه الأبيات بناؤها قائم في أغلبها على مفارقة الأحوال، فالوعظ في ذلك بالغ غرضه بتصوير الموقف المتباين بالتقابل أو التضاد، وهما ظاهرتان فنيتان ذواتا نفع وإفادة في ترسيخ المعنى أو توجيه الحكم.

ويربط الجاحظ هذه الأنماط بغاية سلوكية تربوية إذ يعلل لقصيدتين لبشر بن المعتمر اشتملتا على حكمة عجيبة، وموعظة بليغة بالقول: «إن حفظ الشعر أهون على النفس، وإذا حفظ كان أعلق وأثبت، وكان شاهداً، وإن احتيج إلى ضرب المثل كان مثلاً»^(١).

وتفصح هذه الأنماط المخصوصة بالرواية والحفظ عن لونين من الشعر: أحدهما: قيده بالمذاكرة إذ فيه مجال للقول، ومتسع للنقاش والنقد لعب فني، أو خطأ معنوي، وحدد الجاحظ لذلك علة من تنشيط النفس، وتجديد الهممة، فهو يقول في التمهيد لهذا اللون: «وسنذكر قبل ذكرنا لهذا الباب أبواباً من الشعر طريفة، تصلح للمذاكرة، وتبعث على النشاط معه، وتستخف معه قراءة ما طال من الكتب الطوال»^(٢).

وثانيهما: أطلقه من غاية محدودة، وجعل مداره النادرة وطرافة المعنى، ولذلك أدرجه تحت باب «أخلاق من شعر ونوادر وأحاديث» ومن نماذجه^(٣) قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي:

وإن مقال المرء في غير كنهه لكالنبل تهوي ليس فيها نصالها
وقول الراجز:

والقول لا تملكه إذا نما كالسهم لا يرجعه رام رمى
وقول الأنصاري:

(١) الجاحظ: الحيوان ٢٨٤/٦.

(٢) الجاحظ: الحيوان ١٥٥-١٥٤/٥.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ٢٠٣/٣ وانظر الحيوان ٤٨٢/٦.

وبعض القول ليس له حصة كمخض الماء ليس له إزاء
وبعض خلانسق الأقسام داء كداء الشيخ ليس له دواء

على أن الملاحظة التي لا تحتاج إلى فضل تدبر هي أن هذه المرويات مقطوعات
وأبيات، فعمل الجاحظ قصد منها ما قصده الفرزدق في مقولته وقد سئل: ما صيرك
إلى القصار بعد الطوال فقال: «لأنني رأيتها في الصدور أولج وفي المحافل أبلج»^(١)
وللتجويد في القصار والطوال منزلة رفيعة عند الجاحظ لأنه نتاج الموهبة المرنة
الصائبة.

وكان ابن طباطبا (محمد بن أحمد ت ٣٢٢هـ) واضح النهج، قويم الاتجاه، دالاً
على الإحسان في مرويات شعرية عدّة، إذ حدّد أسسه في الانتخاب بما يتفق والاتجاه
الجمالي في المفهوم الإسلامي، الذي مداره على إتقان الصنعة الفنية إتقاناً لا يفقد
المعاني القوامة والاستقامة على الخلق والحق والفضيلة والخير، فكانت مروياته لذلك
من «الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعاني، الحسنة الرصف، السلسلة
الألفاظ، التي قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظاماً، فلا استكراه في قوافيها، ولا
تكلف في معانيها، ولا داعي لأصحابها فيها»^(٢) وبمفهوم آخر فإن ابن طباطبا قصد
إلى أن يحقق الشعر غاية نفعية تربوية جمالية، فطلب ذلك في الشعر بمجموع من
عناصر بنائه الفني، كالسهولة والبساطة في التعبير، وتكامل المعاني واستيفاء الأجزاء
التي تحقق وحدتها، مع مباينة التكلف؛ ولذلك فإن الأشعار التي تجري وفق هذه
المعايير قديمة كانت أو محدثة «تجب روايتها والتكثير لحفظها»^(٣).

وتنتمي النصوص التي انتخبها ابن طباطبا إلى الأدبين الجاهلي والإسلامي،
وكان تعدادها أربعة وعشرين نصاً، لواحدٍ وعشرين شاعراً موزعة على النحو التالي:

(١) أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر ٢/٣٠١ تحقيق د. إبراهيم الكيلاني دمشق ١٩٦٤م.

(٢) ابن طباطبا: عيار الشعر ٤٨-٤٩.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٧.

عدد الأبيات	عدد الأعراس	عدد النصوص	شاعر إسلامي	عدد الأبيات	عدد الأعراس	عدد النصوص	شاعر مخضرم	عدد الأبيات	عدد الأعراس	عدد النصوص	شاعر جاهلي
٢٠	مدح	٢	القطامي	٤	رثاء	١	أبو ذؤيب الهذلي ^(١)	١٨	وعظ	٢	زهير بن أبي سلمى
٥	مدح	١	ذو الرمة	١٧	فخر	١	أبو قيس بن الأسلت	١١	فخر	١	عترة
٣٤	رثاء	٣	الفرزدق	٧	رثاء	١	الخنساء	٨	وعظ	١	الأسود بن يعفر
٧	شكوى	١	الراعي النميري	١١	فخر	١	نهشل بن حوران المازني	٤	فخر	١	سلامة بن جندل
١٨	فخر	١	أبو النجم المعجلي	٥	وعظ	١	النمر بن تولب	٩	فخر	١	المغيرة بن جبناء
١٥	فخر	١	عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي					١٩	فخر	١	عبد الشارق بن عبد العزى
٦	مدح	١	مروان بن أبي حفصة ^(٢)					٨	وعظ	١	المثقب العبدي
								١٥	وعظ	١	عدي بن زيد
١٠٥	٤	١٠	٧	٤٤	٣	٤	٥	٨٣	٣	٩	٨

ويمنح هذا الجدول للدارس له تصورات عدّة، تدني من فهم رؤية ابن طباطبا النقدية في مجال الرواية، من ذلك أن الانتخاب بين شعراء الجاهلية والإسلام مبني

- (١) أبو ذؤيب شاعر مخضرم غير أن النص الذي أورده له ابن طباطبا في رثاء أبناء الخمسة إسلامي على أرجح الآراء فيه.
- (٢) شاعر مجود ولد سنة ١٠٥هـ توفي في عصر الرشيد سنة ١٨٢هـ وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية.

على توازن أو قريب منه، وتتبدى قيمة هذا المنحى عند ابن طباطبا إذا ربطنا هذه العينة بما انتخبه الأصمعي والمفضل الضبي من الشعر الإسلامي إذ قصر الأمر في ذلك على المخضرمين دون غيرهم. ولم يتجاوز عدد الشعراء المخضرمين في الأصمعي عشرة شعراء، بينما يتجاوز ذلك في المفضليات قليلاً، غير أن احتفاء الأصمعي بأشعار المخضرمين أكثر من نظيره المفضل^(١). ولعل في عدد أبيات الشعر الإسلامي الذي مجموعه مائة وتسعة أبيات مجازاً للقول أن الشعر الإسلامي صنو الشعر الجاهلي في الإحسان والإتقان بل إن فيه إمتاعاً زائداً عليه للباحث عنه.

وإذا استثنى الباحث نصاً واحداً قائله من مخضرمي الدولتين والمقول فيه من العصر العباسي، كان اقتصار ابن طباطبا على شعر العصرين الجاهلي والإسلامي وفاءً لقناعته في تميز شعر هاتين المرحلتين بالصدق دون شعر المحدثين، وهو بذلك يعطي الرواية فهماً جديداً وأساساً أصيلاً، يقول ابن طباطبا: «ومع هذا فإن من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء وفي صدر الإسلام كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحاً وهجاءً وافتخاراً ووصفاً وترغيباً وترهيباً، إلا ما قد احتمل الكذب فيه في حكم الشعر من الإغراق في الوصف والإفراط في التشبيه، وكان مجرى ما يوردونه مجرى القصص الحق والمخاطبات بالصدق»^(٢).

ولئن كان في تقرير ابن طباطبا النظري هذا مدعاة للدهشة عند بعض الباحثين^(٣)؛ لتعميمه في ذلك ومجانبته الدقة، فقد يكون في هذه العينة من المنتخبات التي تعزز النظرية بالتطبيق، ما يقيد مقصده، ويحقق صواب رأيه.

ويلم ابن طباطبا في هذه المنتخبات بأغراض شعرية خمسة؛ هي الفخر والمدح والرثاء والوعظ والشكوى، وهذه الأغراض ذات صلات بأغراض أخرى مثل الوصف

(١) عدد قصائد المفضليات ١٣٠ والأصمعيات ٩٢.

(٢) ابن طباطبا: عيار الشعر ص ٩.

(٣) د. إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي ص ١٤٣.

خاصة، الذي جاء الابتداء به يحمل غاية نفسية تمهيدية للفخر أو المدح، وهو وصف جمالي فيه إتقان وإثارة في تصوير السلاح أو رسم صورة المراكب، من ذلك قول سلامة بن جندل^(١):

سوى الثِّقَافِ قنَاهَا فِهِي مُحْكَمَةٌ قليلة الزَّيْغِ من سِنَّ وتَرْكِيبِ^(٢)
كَأَنَّهَا بِأَكْفُ القُومِ إِذَا لَحَقُوا مَوَاتِحُ البَيْرِ أو أَشْطَانِ مَطْلُوبِ^(٣)
كُنَا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِحُ فِرْعُ كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ قِرْعِ الطَّنَائِبِ^(٤)
وَشَدُّ كُورِ عَلِيٍّ وَجِنَاءِ نَاجِيَةٍ وَشَدُّ لَبْدِ عَلِيٍّ جِرْدَاءِ سِرْحُوبِ^(٥)

وقول القطامي^(٦):

يَمْشِينَ رَهْوَاً فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلَا الصَّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَكَلُّ
فَهُنَّ مَعْتَرِضَاتُ وَالْحَصَى رَمَضُ وَالرِّيحُ سَاكِنَةٌ وَالظِّلُّ مُعْتَدَلُ
يَتَبَعْنَ سَامِيَةَ الْعَيْنِينَ تَحْسَبُهَا مَجْنُونَةً أَوْ تَرَى مَا لَا تَرَى الْإِبِلُ
إِنْ تَرْجِعِي مِنْ أَبِي عَثْمَانَ مَنجِحَةً فَقَدْ يَهُونَ مَعَ الْمَسْتَنْجِحِ الْعَمَلُ
أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَا يَحْزَنُكَ شَأْنُهُمْ إِذَا تَخَطَّ عَبْدُ الْوَاحِدِ الْأَجَلُ

وإنما جاء تخصيص هذه الأغراض دون غيرها عند ابن طباطبا والحض على روايتها والتكثر من حفظها طلباً لأمرين:

(١) عيار الشعر ص ٥٧ .

(٢) الثِّقَافُ : خشبة في وسطها ثقب يقوم بها الرماح إذا اعوجت، الزَّيْغُ : الاعوجاج، السِّنُّ : التحديد والتركيب : وضع النصال عليها .

(٣) المَوَاتِحُ : الجبال التي ينتزع بها الماء، والأشطان : الجبال الطويلة، ومَطْلُوبُ : بثر جعيدة على طريق المدينة والشام .

(٤) الطَّنَائِبِ : جمع ظنوب : وهو حرف عظم الساق .

(٥) الكُورُ : رحل الناقة بأدائه، الوجناء : الناقة الغليظة، والناجية : السريعة، الجرداء : الفرس القصيرة الشعر، والسرحوب الفرس الطويلة .

(٦) عيار الشعر: ص ٥٥ .

أولهما: أن فيها مدار المثل الأخلاقية والقيم السلوكية عند العرب والمسلمين مدحاً
وفخراً.

وثانيهما: تحقق الصدق فيها بمبادئه وأسس وأنواعه.

ويتداخل هذان المطلبان تداخلاً يضحى الفصل بينهما أمراً عسراً؛ لأن مرجع
الغاية فيهما متوحد في التأثير في النفس عن طريق الفهم، وخلود القيم المرتبطة
بالمضمون وبالشكل.

١- أما مطلبه الأول فقد جاء حصر معالمه ومعانيه في قوله: «وأما ما وجدته في
أخلاقها، ومدحت به سواها، وذمت من كان على ضد حاله فيه فخلال مشهورة كثيرة:
منها في الخلق والجمال والبسطة، ومنها في الخلق السخاء والشجاعة والحلم والحزم
والعزم والوفاء والعفاف والبر والعقل والأمانة والقناعة والغيرة والصدق والصبر والورع
والشكر والمداراة والعفو والعدل والإحسان وصلة الرحم وكنم السرّ والمواناة وأصالة
الرأي والأنفة والدهاء وعلو الهمة والتواضع والبيان والبشر والجلد والتجارب والنقض
والإبرام وما يتفرع من هذه الخلال التي ذكرناها من قرى الأضياف . . . الخ»^(١).

ويحقق هذا المطلب من منتخباته قول زهير بن أبي سلمى في المدح^(٢):

هنالك إن يستخبوا المال يخبلوا	وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا ^(٣)
وفيهم مقامات حسان وجوههم	وأندية ينتابها القول والفعل
على مكثريهم حق من يعتريهم	وعند المقلين السماحة والبذل
وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم	مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل
وإن قام منهم حامل قال قاعدٌ	شكرت فلا غرم عليك ولا خذل
سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم	فلم يفعلوا ولم يكتموا ولم يألوا

(١) ابن طباطبا: عيار الشعر ص ١٢ .

(٢) المصدر نفسه ٤٩-٥٠ .

(٣) الاستخبال: أن يستعير الرجل من الرجل إبلاً زمن الشدة فينتفع بها فإن أيسر ردها.

وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل

وهذه الأبيات غاية في المدح وقد نالت من الثناء جزيلاً، فالأحنف يقول
لمعاوية: «فإنكم كما قال زهير وألقى على المداحين فصول القول»^(١) ذلك أن زهيراً
«لما استتم وصفهم بحسن المقال، وتصديق القول والفعل، ووصفهم بحسن الوجوه،
ثم قال: «على مكثريهم حق من يعتر بهم . . . البيت» فلم يخل كثيراً ولا مقلداً منهم
من يرّ وفضل، ثم قال «فإن جثتهم . . . البيت» فوصفهم بالحلم، ثم قال: «وإن قام
منهم قائم . . . البيت» فوصفهم أيضاً بالتضافر والتعاون، فلما آتاهم هذه الصفات
النفسيّة ذكر فضل آبائهم فقال: «وما يك من خير أتوه . . . البيت» «وهل ينبت الخطي
إلا وشيجه . . . البيت» فهي لذلك كله من المدح الجيد»^(٢).

ومن المدح وفاء وحسن جزاء لجميل فعل سبق، يقول القطامي^(٣):

يقتلنا بحديث ليس يعلمه من يتقين ولا مكتومه بادي
فهن ينبذن من قول يصببن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي
من مبلغ زفر القيسي مدحتّه من القطامي قولاً غير أفناد
إني وإن كان قومي ليس بينهم وبين قومك إلا ضربة الهادي
مثن عليك فما استيقنت معرفتي وقد تعرّض مني مقتل بادي
فلن أثيبك بالنعماء مشتمة ولن أبدل إحساناً بإفساد
فإن هجوتك ما تمت مكارمتي وإن قدرت على يوم جزيت به
أبلغ ربعة أعلاها وأسفلها تقرّهم لهزميات نقدُ بها

(١) الحصري: زهر الآداب ٥١/١.

(٢) أبو هلال العسكري: الصناعتين ١٠٧-١٠٨.

(٣) ابن طباطبا: عيار الشعر ص ٥٦.

وللفخر حضور متميز العدد في منتخبات ابن طباطبا، إذ فاق عدد قصائده الأغراض الأخرى، وهو شامل للجاهلية والإسلام وإن كانت نسبه في الجاهلية أعلى فهو انعكاس لصفة الحياة المتغيرة بينهما، وإدراك الإنسان لوظيفته فيهما، وكان ابن طباطبا وفيماً لمنهجه حين جعل الفخر سالكاً سبيل الإعلان عن الشجاعة والإقدام والمنعة والنجدة والتضحية من خلال وحدة الجماعة وانتمائها لهذه المثل والقيم، وتضحية الفرد في تثبيت هذه الحقوق وديمومتها، من ذلك قول نهشل بن حران المازني^(١):

إِنَّا مُحْيِيكَ يَا سَلْمَى فَحْيِينَا وَإِنْ سَقَيْتَ كِرَامَ النَّاسِ فَاسْقِينَا
 إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لَا نَدْعِي لِأَبٍ عَنْهُ وَلَا هُوَ بِالْأَنْبَاءِ يَشْرِينَا
 إِنْ تَبَسَّدَرْنَا غَايَةً يَوْمًا لِمَكْرَمَةٍ تَلَقَّ السُّوَابِقَ مِنَّا وَالْمُضْلِينَا^(٢)
 وَلَيْسَ يَهْلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أَبَدًا إِلَّا افْتَلَيْنَا غَلَامًا سَيِّدًا فِينَا^(٣)
 إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِي الْأَمْنِ أَغْلِينَا^(٤)
 بِيضٌ مَفَارِقُنَا تَغْلِي مَرَاجِلُنَا نَأْسُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيْدِينَا^(٥)

(١) المصدر نفسه ص ٦٤. والأبيات تنسب إلى بشامة بن جزء النهشلي (شرح الحماسة للمرزوقي ١٠٠/١).

ولعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي قصيدة تجري في الانجاه ذاته من الفخر (عيار الشعر ص ٦٦):

تعيرنا أنا قليلٌ عدبنا فقلت لها إن الكرام قليل

(٢) المُضَلَّى من الخيل: الذي يتلو السابق فيكون رأسه عند صلاه أو العظم الناتئ من جانبي العجز، وقصد أن السابقين والتالين في المكرمات من قومه.

(٣) الافتلاء: الافتظام، والمعنى تهيئة الغلام عمًا هو عليه إلى الرئاسة.

(٤) أغلين: جعلت غالية أو وجدت غالية، ونسام نحمل على أن نسوم بها ومقصود البيت الإبانة عن محل النفس من الشجاعة، والبيت قائم على المقابلة بين حالين متباينين.

(٥) المفارق: الوجوه، والمقصود بها نقاء العرض وانتفاء الدَّم، وقد يكون المراد ايضاص المفارق من شدة أهوال الشدائد التي يقاسونها، والمراجل: قدور الضيافة، والأسو: مداواة الجرح.

إني لَمِن مَعْشِرِ أَفْنَى أَوَائِلِهِمْ قَوْلُ الْكُمَاةِ أَلَا أَيْنَ الْمُحَامِدُونَ^(١)
لو كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعَوْا مَن فَارِسٌ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَعْنُونَا
إِذَا الْكُمَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَنَالَهُمْ حَدُّ الطُّبَاتِ وَصَلْنَاهَا بِأَيْدِينَا^(٢)
وَلَا تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ مَعَ الْبِكَاةِ عَلَى مَن مَاتَ يَبْكُونَا
وَتَرَكِبُ الْكُرَّةَ أَحْيَانًا فَيَفْرُجُهُ عَنَّا الْحِفَاظُ وَأَسْيَافُ تَوَاتِينَا^(٣)

وإذا كانت العرب في جاهليتها تقول الأبيات اليسيرة من الرجز في الحرب والحداء والمفاخرة فمن الجدير بالتقديم في زمن الإسلام أبو النجم العجلي الذي حملت همزته فخراً بماثر قومه في رعاية الخيل، والعناية بالعتاد والعدة من سيوف ودروع ورماح، قصداً إلى المنعة والإغاثة والنجدة، كل ذلك بصدق خلقي في محاكاة الواقع^(٤)، وفن متدفق الصور الفنية، متآلف مع إيقاع موسيقى قوي النبرات، في جزالة لفظه، وحسن تركيبه، وانسجامه مع إحياء المعاني، يقول^(٥):

والخيل تَسْبَحُ بِالْكُمَاةِ كَأَنَّهَا طَيْرٌ تَمَطَّرُ مِنْ ظِلَالِ عَمَاءِ
يُخْرِجُنَ مِنْ رَهَجِ دَوْبِنِ ظِلَالِهِ مِثْلَ الْجِنَادِبِ مِنْ حَصَى الْمَعْرَاءِ
يَلْفُظْنَ مِنْ وَجَعِ الشُّكِيمِ وَعَجْمِهِ زَيْدًا خَلَطْنَ بِيَاضَهُ بَدْمَاءِ^(٦)
كَمِ مِنْ كَرِيمَةِ مَعْشَرِ أَيْمَنِهَا وَتَرَكْنَ صَاحِبَهَا بَدَارِ ثَوَاءِ^(٧)

(١) الكمأة: جمع كمي وهو الشجاع الساتر لنفسه بالسلاح.

(٢) الطبات: جمع طبة: حد السيف.

(٣) في معاني القصيدة والصفات التي فخر بها الشاعر انظر شرح المرزوقي لديوان الحماسة ١ / (١١٠-١١٠).

(٤) سابق أبو النجم الشعراء بهذه القصيدة في بلاط سليمان بن عبد الملك ففاز عليهم محققاً ما اشترط في ذلك من ذكر مآثر القوم دون كذب. (انظر ابن سلام ٧٥١/٢).

(٥) عيار الشعر ص ٦١-٦٢. والقصيدة من البحر الكامل، وتفاعيله وإيقاعه قريب من الرجز.

(٦) الشكيمة: حديدة في لجام الفرس تعترض فمه.

(٧) أيمنها: تركها بلا زوج؛ لأن الحرب مأيمة للنساء. والثواء: طول الإقامة والمقصود الموت.

إن الأعادي لن تنال قديمنا
 كم في لُجِيمٍ من أَعْرٍ كأنه
 بَحْرٌ يَكْلُلُ بالسَّدِيفِ جِفَانُهُ
 ومُجْرَبٍ خَضَلَ السَّنَانُ إذا التقى
 صَدْيُ القَبَاءِ من الحَدِيدِ كأنه
 إِنَّا وَجَدْنَا ما يكون سَلاخُنَا
 نَأوي إلى حَلَقِ الحَدِيدِ وَقُرْحٍ
 ولقد غَدُونُ على طَهِيَّةٍ غَدُوَّةٌ
 تَلُكُم مَرَاكِبُنَا وفوقَ جِائِنَا
 قَدْرُن من حَلَقِ كَأَنَّ شُعَاعَهَا
 تحمي الرَّماحَ لنا حمانا كُلَّهُ
 إن السِيفَ تَجِيرُنَا ونَجِيرُهَا
 لا يَنْثَنِينَ ولا نَرُدُّ حُدُودَهَا
 إِنَّا لَنُعْمَلُ بالصَّفوفِ سِيفُونَا
 حتى تنالَ كواكِبَ الجوزاءِ
 صُبْحُ يَشُوقُ طِيالِسَ الظَّلْماءِ
 حتى يموتَ شمالَ كلِّ شتاءِ^(١)
 رَجَعَت بِخاطِرِهِ الصَّدُورَ ظَمَاءِ
 جَمَلٌ تَغْمَدُهُ عَصِيمٌ هَنَاءِ
 حَجَرُ الأَكَامِ ولا عصا الطرفاءِ
 قُبُّ تَشُوقٍ نحو كُلِّ دَعاءِ
 حتى طَرَقَن نساءَنا بنِساءِ
 بيضِ الغَضُونِ سِوابعِ الأَثْناءِ
 ثَلَجٌ يَطِنُ على مَتونِ نِهاةِ
 وتَسْبِجُ بَعْدُ مَسارِحِ الأَحْماءِ
 كُلُّ يَجِيرُ بِعِزَّةٍ ووفاءِ
 عن حَدِّ كُلِّ كَتِيبةِ خِرساءِ
 عَمَلِ الحَرِيقِ يَباسِ الحَلْفاءِ

وتجدر الإشارة إلى أن ابن طباطبا جرد قصائد الفخر القبلي - إذا استثنينا قصيدة
 نهشل بن حران - من خصوصيتها القبلية، فأطلق الفخر فيها من قيود المرجع الذي
 يعود إليه القول؛ بإسقاط الأبيات المتعلقة بذلك، فغدت المعاني والقيم أنيس كل
 مفتخر، وغناء حماسياً لكل طالب عزة.

ولا يقل الفخر بالذات والنفس في قيمه الأخلاقية عن الفخر الجماعي بالقوم،
 خاصة إذا كان حديثاً عن الطبائع الكريمة والسجايا الحميدة من حياء وعفاف وما أشبه
 من إكرام النفس، وصونها عما يذنسها، أو يلحق الأذى بها، وكان إخراج ذلك مخرج
 الوعظ بالموقف الهادي إلى ترسيخ الحكم والحكمة دون المباشرة في التوجه والتعبير،

(١) السديف: شحم السنام، والشمال: ربيع شديدة البرودة تهب شتاء.

يقول المغيرة بن حبياء^(١):

فإن يك عاراً ما لقيت فربما
ولم أر ذا عيش يدوم ولا أرى
ومن يفتقر يعلم مكان صديقه
وإنني لأستحي إذا كنت معسراً
وأهجرُ خلاني وما خانَ عهدهم
وأكرم نفسي أن ترى بي حاجةً
ولما رأيت المالَ قد حيلَ دونه
جعلت حليف النفس عضباً ونشرةً
ولا خير في عيش امرئٍ لا ترى له
أتى المرء يوم السوء من حيث لا يدري
زمان الغنى إلا قريباً من الفقر
ومن يحيى لا يعدم بلاءً من الدهر
صديقي والخلان أن يعلموا عُشري
حياءً وإكراماً وما بي من كبر
إلى أحد دوني وإن كان ذا وفر
وصدت وجوه دون أرحامها البتر
وأزرق مشحوداً كخافية النسر
وظيفة حق في ثناء وفي أجر

٢- وأما مطلبه الثاني وهو قيام هذه المرويات على الصدق، فعلى الرغم من تحقيقه في المطلب الأول في المدح والفخر خلقياً بنقل الحقيقة الأخلاقية كما هي في الواقع الخارجي^(٢)، فإن في الرثاء والوعظ والشكوى صدقاً فنياً في التعبير عن العواطف والأحاسيس تعبيراً أميناً دون تزييف أو تزوير، وصدقاً آخر في المعاني المستمدة من التجارب بالدقة والإصابة.

ولم يكن موقف ابن طباطبا متوازناً فيما انتخب من المراثي، سواء أكان في عددها أو طولها، غير أنه كان منسجماً مع معياره في صدق الفن وصدق التجربة، فقد تخير لأبي ذؤيب أبياتاً ثلاثة أصاب فيها ضعف حيلة الإنسان واستسلامه أمام قوة الموت أو العدم، وهي قوله^(٣):

(١) عيار الشعر: ص ٥٧-٥٨ وانظر قصيدة أبي قيس بن الأسلت ص ٥١ وقصيدة عنترة ص ٥٣.
(٢) من ذلك أيضاً المنصفة التي اختارها لعبد الشارق بن عبد العزي الجهني (انظر عيار الشعر ص ٦٢).
(٣) المصدر نفسه ص ٥٠.

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَبِّهَا تَتَوَجَّعُ وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مَنْ يَجْزَعُ
وَإِذَا الْمَنِيَةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وقد جرد ابن طباطبا هذه المرثية من الصور الثلاث التي أتقن أبو ذؤيب تصويرها، وهي حمار الوحش، والثور مع الصائد والكلاب، والفارس البطل، التي تمثل مظاهر القوة في صراع الحياة وانهارها أمام الموت. وفات ابن طباطبا بإخلاصه لمقياسه في الصدق وحدة تطبيقه إدراك العزاء والتسلية والصبر في هذه الأنماط من الصراع مع الحيوان وهو اتجاه جرت عادة الشعراء فيه إذا كان الشعر مرثية أو موعظة^(١).

واختار من قصائد الخنساء البكاية في صخر أبياتاً ذات إيقاع متميز التقطيع بوحدات متكافئة متساوية، ونبرات متعادلة الامتداد الصوتي، بتكرار ترتيب البناء بصيغة فقال:

لو أن للدهر مالا كان مُتْلَدَه لكان للدهر صخرُ مال قُنْيَانِ
أبي النصيحة، حمال العظيمة متلا ف الكريمة، لا سقط ولا وانِ
حامى الحقيقة، نسال الودي عة معتاق الوثيقة، جلد غير ثنيانِ
رئاء مرقبة، مناع مغلقة ورأد مشربة، قَطَاعِ أَقْرَانِ
شهاد أنجية، حمال ألوية هبَّاط أودية، سرحان قيعانِ
التارك القرن مخضوباً أنامله كأن في ريطتية نضخ أرقانِ

ولا تثريب على ابن طباطبا في الميل إلى هاتين المرثيتين، فلقصيدة أبي ذؤيب في رثاء أبنائه الخمسة، أو شعر الخنساء في بكاء صخر، شأن رفيع في الوسط النقدي قديماً وحديثاً، لكن التثريب عليه في اختياره مرثيات ثلاث للفرزدق، واحدة غيرية يرثي فيها بشر بن مروان، وثنان ذاتيتان يرثي فيهما بنيه^(٢).

(١) الجاحظ: الحيوان ٢/٢٠. (٢) انظر عيار الشعر ص ٥٨-٦٠.

حقاً أن الفرزدق مزج مدحاً بتفجع في رثائه بشر بن مروان، وكان في مدحه له مقتصداً حين وصفه «بأبيض ميمون النقيبة والأمر» وبالأغر الذي يشبه البدر:
وإن أبا مروان بشراً أحاكم ثوى غير متبوع بدم ولا غدر
وأظهر الفرزدق حزناً وتفجعاً عليه بقوله: إن الدهر لا يقاتل والمنية لا تدفع:

وما أحد ذا فاقة كان مثلنا إليه ولكن لا تقيه للدهر

غير أن هذا التفجع هوّن من فاعليته مجارة الفرزدق للشعراء في المعاني التقليدية في مشاركة الكون له في بكائه وحزنه:

فإلا تكن هند بكته فقد بكت عليه الثريا في كواكبها الزهر
ألم تر أن الأرض هدت جبالها وأن نجوم الليل بعدك لا تسري
وقد كرر هذا المعنى في رثائه لبنيه في قوله:

ولو كانوا بني جبل فماتوا لأمسى وهو مختشع الصخور
وقوله:

على حدث لو أن سلمى أصابها بمثل بنيّ انفض عنها هضابها

ولم يبرح الفرزدق في هذا الرثاء الفخر بالنفس والتعريض بالغير قصداً إلى إظهار التماسك، على الرغم من يقينه بكتاب الموت الذي لا يؤجل:

بنو الأرض قد كانوا بنيّ فعزني وداع علي الله لو مت قد رأى
ومن متمن أن أموت وقد بنت بقيت وأبقت من قناتي مصيبي
وما زلت أرمي الحرب حتى تركتها عليهم بآجال المنايا كتابها
بدعوتيه ما يتقي لو يجابها
حياتي له شماً عظماً قبابها
عشوزنة زوراء صُماً كعابها
كسير الجناح ما تدق عظامها

ويظل إلحاح الفرزدق على الصورة البيانية المجسدة لانفعاله الحزين وهمه

الطويل، ظاهرة واضحة الدلالة على احتفال بحسن الرصف وإتقان المعاني، وهو ماثار إعجاب ابن طباطبا، يقول الفرزدق مشاركاً لزوجته في الحزن:

إذا حنت نوار تهيج مني	حرارة مثل ملتهب السعير
حنين الوالهيّن إذا ذكرنا	فؤادينا اللذين مع القبور
كأن تشرب العبرات منها	هراقة شنتين على بعير
كأن الليل يحبسه علينا	ضرار أو يكرُّ إلى نذور
كأن نجومه شول تشني	لأدهم في مباركها عقير

وقال واصفاً حاله بصورة أخرى من التعبير:

إذا ذكرت أسماؤهم أو دعوتهم	تكاد حيازيمي تُفري صلابها
وإني وإشرافي عليهم وما أرى	كنفسي إذ هم في فؤادي لبابها
كراكرز أرماع تُجزّعن بعدما	أقيمت عواليها وشدت حرابها

وانتخاب ابن طباطبا لهذه المراثي الذاتية والغيرية ينبىء عن فهم للثناء بأنه وعظ واتعاظ، وصبر وعزاء، أكثر من كونه مدحاً للميت وثناء عليه وتأييماً له، وهذا الفهم جعل المراثي عند ابن طباطبا تجري في سياق المواعظ والحكم، في عموم الغاية، وخصوص التجربة والصدق.

غير أن الملاحظ أن ابن طباطبا قصر المراثي على الإسلاميين أو من شهد الإسلام من المخضرمين، في حين حصر انتخابه من المواعظ والحكم في الشعراء الجاهليين، وكان من الممكن أن ينبىء هذا القصر والحصر عن فهم متميز لطبيعة المراثي الإسلامية، لو كانت المختارات الأربعة السابقة على درجة من التوجه الإسلامي في الثناء، وأنه وعظ بالموت والآخرة، أو تصوير لقضايا الإنسان في الحياة الدنيا والآخرة.

وتقوم المواعظ والحكم الجاهلية على فقه لمجريات الحياة وتصوير لحال

الإنسان تصويراً مادياً عقلياً، فالتجربة فيها تأملية، وتوجيه الإنسان فيها بالموقف والصورة أو بالمباشرة أمراً ونهياً. فمن التوجيه بالموقف والصورة قول الأسود بن يعفر النهشلي:

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إباد
... جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
إذا النعيم وكل ما يلهي به يوماً يصير إلى بلى ونفاد
... الأبيات^(١).

والأبيات المختارة من قصيدة «رائعة طويلة لاحقة بأجود الشعر»^(٢) وهي من مختار أشعار العرب وحكمها المفضلة المأثورة^(٣).

وفي قصيدة عدي بن زيد دعوة مباشرة للتحلي بأخلاق الرجل القدوة، في اجتناب الشبهات، والتزام الفضائل، وحفظ المعروف، وحسن اختيار الصديق، وقوة المطالبة بالحق، والعفاف والحلم والعدل والصدق ومجانبة الظلم:

كفى واعظاً للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتدي
... فنفسك فاحفظها من الغي والردى متى تغوها يغو الذي بك يقتدي
وإن كانت النعماء عندك لا مريء فمثلاً بها فاجز المطالب أو زد
إذا أنت لم تنفع بودك أهله ولم تُنك بالبؤس عدوك فابعد^(٤)
إذا أنت فأكهت الرجال فلا تلغ وقل مثلما قالوا ولا تتزيد^(٥)
عن المرء لا تسأل وابصر قرينته فإن القرين بالمُقارن مقتد

(١) ابن طباطبا: عيار الشعر ص ٥٤.

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/١٤٧.

(٣) أحمد محمد شاكر: حاشية المفضليات ٢/١٥.

وانظر تحليلاً للقصيدة في الفصل الأول من هذا الباب ص ٣٦٠-٣٦٩.

(٤) تنك: تفهر أو تصاب.

(٥) تلغ: تجزع وتضجر، ورواية الديوان تنزند، وتنزند: ضاق بالجواب والتنزند: سرعة الغضب.

فَعَيْفٌ وَلَا تَطْلُبْ بِجَهْدٍ فُتْنَكَدِ
 بِحِلْمِكَ فِي رِفْقٍ وَلِمَا تَشَدَّدِ
 وَمَا اسْطَظَعْتَ مِنْ خَيْرٍ لِنَفْسِكَ فَازْدِدِ
 وَذَا الدَّمِ فَادْمُمُهُ وَذَا الْحَمْدِ فَاحْمِدِ
 مِنْ الْيَوْمِ سُؤلاً أَنْ يُيسَّرَ فِي غَدِ
 عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحَسَامِ الْمُهَنْدِ (١)
 وَقَامَ جُنَاةُ الشَّرِّ لِلشَّرِّ فاقْعُدِ

إِذَا أَنْتَ طَالَبْتَ الرَّجَالَ نَوَالَهُمْ
 سَتُذْرِكُ مِنْ ذِي الْفُحْشِ حَقَّكَ كُلَّهُ
 فَلَا تُقْصِرَنَّ عَنْ سَعْيِ مَا قَدْ وَرِثَهُ
 وَبِالصَّدَقِ فَانْطِقْ إِنْ نَطَقْتَ وَلَا تَلْمُ
 عَسَى سَائِلٌ ذُو حَاجَةٍ إِنْ مَنَعْتَهُ
 وَظَلَمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً
 إِذَا مَا رَأَيْتَ الشَّرَّ يَبْعَثُ أَهْلَهُ

وهذه القصيدة «إحدى أربع قصائد غرر روائع مبرّزات» (٢) لعدي بن زيد، تستقيم في أحكامها مع العقل وحكمه، وتتنظم في شمولها الإنسان أياً كان زمانه باطراد لا ينخرم، وهي لذلك تسمو على حكم زهير التي بدأ بها ابن طباطبا مختاراته:

ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسَامُ
 تَمْتَهُ وَمَنْ تَخْطَى، يَعْمُرُ فِيهِرَمِ
 يُضَرِّسُ بِأَنْسَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسَمِ
 وَلَكِنْنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدِ عَمِ
 يَفْرَهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشُّتْمَ يُشْتَمِ
 عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنِ عَنْهُ وَيَذْمَمِ
 إِلَى مَطْمَثِنِ الْبِرِّ لَا يَتَجَمِّمِ
 يَطِيعُ الْعَوَالِي رُكِبَتْ كُلُّ لَهْذَمِ
 يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمِ
 وَمَنْ لَا يُكْرِمُ نَفْسَهُ لَا يُكْرَمِ

سَمِتَ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ
 رَأَيْتَ الْمَنَايَا خَبِطَ عَشْوَاءَ مِنْ تَصَبِ
 وَمَنْ لَا يَصَانِعُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
 وَأَعْلَمَ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ
 وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ
 وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيُخَلِّ بِفَضْلِهِ
 وَمَنْ يُوْفِ لَا يُدَمِّمُ وَمَنْ يُفْضِرُ قَلْبَهُ
 وَمَنْ يَعْصُ أَطْرَافَ الزُّجَاجِ فَإِنَّهُ
 وَمَنْ لَا يَدُّدُ عَنْ حَوْضِهِ بِسَلَاحِهِ
 وَمَنْ يَغْتَرِبُ يَحْسَبُ عَدُوًّا صَدِيقَهُ

(١) المضاضة: الحرقعة.

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/١٤١.

وسواء أكان طرح زهير لهذه الحكمة متصلاً بموضوع معلقته الحرب والسلام، أو كان تجربة تأميلة صرفة، فإن فيها بعض الصواب وبعض الخطأ، وهو أمر طبيعي عند من يعتمدون المعرفة المنطقية سبيلاً للتقرير والحكم، ولعل أمر هذا المنطق ملحوظ في الجملة الشرطية التي طغت أسلوباً على هذه الحكمة، وقد أدرك جانباً من ذلك ابن شرف القيرواني حين عرض لسقطات زهير في معلقته، فيقول تعليقاً على قول زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن يخطيء يعمر فيهم
«وقد غلط في وصفها بخبط العشواء... وإنما أدخل الوهم على زهير موت قوم
عبطة وموت قوم هرمأ، وظنوا طول العمر إنما سببه إخطاء المنية، وسبب قصره
إصابتها، وهيهات الصواب من ظنه!»^(١).

وفي قول زهير:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يُهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم
قال: «وقد تجاوز هذا الحق الباطل، وبنى قولاً ينقضه جريان العادة، وشهادة
المشاهدة، وذلك أن الظلم وعرة مراكبه، مذمومة عواقبه، في جاهليته وإسلامنا،
فحرض في شعره عليه، وإن كان إنما أشار في شعره إلى أن الظالم يرهب فلا يظلم،
فهذا قياس ليس يطرد، لكن يرهبه من هو أضعف منه، وربما انتقم منه بالحيلة
والمكيدة، وقد يظلم الظالم من يغلبه فيكون سبب هلاكه مع قباحة السمة بالظلم.
والمثل إنما يضرب بما لا ينخرم، وقد كانت له مندوحة واتساع في أن يقول «يهدم ومن
لا يظلم الناس يُظلم» فهذا أصح وأسلم من من لا يظلم ويُظلم»^(٢).

ومما يؤخذ عليه في هذه المواضع والحكم قوله في رواية من روى:

(١) ابن شرف القيرواني: رسائل الانتقاد ص ٤٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٨-٤٩.

ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذمّاً عليه ويذمم
إذ تعكس تصوره المادي للحياة والعلاقات الإنسانية؛ بأن يُزَع الخير والمعروف
في أرضه الجديرة به ولا يتجاوزها إلى غيرها مما لا تقدير لأهلها للفضل والمعروف .

ومن الباحثين من حاول ربط هذه الحكم ببناء القصيدة وموضوعها، فجعل البيت
الأول والثاني منها نفساً ذاتياً تأملياً مهد به لما سيقوله، بأن ما يقوله نتاج تجربة وعراك
مع السنين، أما البيت «ومن لا يصانع . . .» وقوله: «ومن يجعل المعروف . . .»
وقوله: «ومن يك ذا فضل . . .» فمرتبط بعمل السديين العظيمين فيما تحمله اتقاء
لمذمة الدهر وللعرض، وأما الأبيات الثلاثة: «ومن يوف لا يذمم . . .» وقوله: «ومن
يعص أطراف الزجاج . . .» وقوله: «ومن لا يذد . . .» فما أقربها إلى استنكار
المواجهة الحربية التي كادت تبعث من جديد لما ارتكبه حصين بن ضمضم
المري . . . وهكذا تمضي صلوات هذه الحكم^(١).

وأياً كان الرأي في حكم زهير فإن الإنسجام مع المعيار الخلقي فيها يظل محدوداً
بموقف ليس فيه شمول ولا إطراد الحكم الصائب، إلا في حدود البيئة التي جاءت
الحكم صدى لواقع الحياة والناس فيها، وهي لا تخلو من صدق وتفكير منطقي .

غير أن حكم عدي بن زيد توجيه للإنسان نحو الأمثل والأقوم على الرغم من
توحده مع زهير في المنطلق الإنساني والبيئي، وشتان بين من يقوّم طريق الإنسان نحو
الرفعة والكمال في القول والعمل بالسعي والجد من غير نظر لفائدة عرضية، أو انتظار
لنتاج ذلك، وبين من لا يرى العلاقات الإنسانية إلا أخذاً وعطاءً، وظلماً واتقاءً،
ومدارة واكتساباً.

وتظل حكم عدي بن زيد ذات نفوذ عميق في النفس الإنسانية بما هيأ لها من

(١) د. محمود عبد الله الجادر: قراءة نقدية في مطولة زهير بن أبي سلمى ص ١٢ (بحث مقدم
لمؤتمر النقد الأدبي الثالث - جامعة اليرموك ١٩٨٩).

دفعات عاطفية حملها الأمر والنهي فأكسب النصح والإرشاد انفعالاً وحرارة، وضمن عدي لمواعظه قدراً من الإيقاع الداخلي في اللغة بالتكرار الصوتي أو التماثل الموسيقي الذي عمّر أجزاء القصيدة كقوله: «تعتري رجالاً عرت من مثل بؤس وأنعم» وقوله: «متى تغوها يغو» فأجز بها المطالب أو زد» وقوله: «فإن القرين بالمقارن يقتد» وقوله:

وبالصدق فانطق إن نطقت ولا تلم وذا الذم فاذممه وذا الحمد فاحمد
إذا ما رأيت الشر يبعث أهله وقام جناة الشر للشر فاقعد

إذ خفت هذه الموسيقى الموقعة من حدة الأداء التقريري للمقولات الفكرية والعقلية، ومكنت للوعظ من مهمته في الاستمالة والتوجيه.

وعلى ذلك فإن هاتين القصيدتين تمثلان مستوى واحداً من صدق التجربة، واختلافاً متبايناً من صدق المعنى وطريقة أدائه، ولعل ابن طباطبا لذلك قصد في هذا الانتخاب.

وكما نزع ابن طباطبا في هذا الانتخاب عن معايير الإحسان قيماً فكرية وفناً تعبيرياً، فقد صدر عن أذواق المعدودين من النقاد في ذلك أيضاً، حيث أخذ برأي أبي عمرو بن العلاء في قصيدة المثقب العبدى، وبذوق ابن سلام في بعض قصائد عدي بن زيد، وباختيار أبي تمام في منصفة عبد الشارق بن عبد العزيز الجهنى وقصيدة عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، واعتمد على المفضليات في كثير من القصائد دون الأصمعيات، ومال ابن طباطبا إلى استجادة ابن قتيبة ورأي ابن المعتز في قصيدة مروان بن أبي حفصة يمدح معن بن زائدة الشيباني^(١)، ولا يعني ذلك

(١) نقل ابن خلكان عن ابن المعتز قال: «وأجود ما قاله مروان قصيدته الغراء اللامية وهي التي فضل بها شعراء زمانه، يمدح فيها معن بن زائدة الشيباني، قال ابن خلكان والقصيدة طويلة تناهز الستين بيتاً وأول المختار منها قوله:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها في غيل خفان أشبل
وفيات الأعيان ١٩٠/٥

أمحاء شخصية ابن طباطبا في هذا المجال، إذ أن له رأياً مميزاً في اختيار قصائد إسلامية، فضلاً عن مؤالفة القصائد الجاهلية لمقياسه الخلفي بتوازن وانضباط.

* * *

ومن مرويات الإحسان عند أهل البلاغة والنقد ما رواه أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل ت ٣٩٥هـ) من شعر أبي محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير من بني عزة بن عوف بن ثقيف، فقد خصّ قصيدته القافية بالعناية فقال ممهداً لها: «قد فضلت أبياته القافية على كل شعر قيل في معناها وهي هذه»^(١):

<p>لا تَسْأَلِي النَّاسَ عَن مَالِي وَكَثْرَتِهِ قَدْ يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّا مِنْ سَرَائِهِمْ أَعْطِي السَّنَانَ غَدَاةَ الرَّوْعِ نِحْلَتَهُ وَأَطْعِنُ الطَّعْنََةَ النَّجْلَاءَ عَن عُرْضِ عَفَى الْإِيَّاسَةِ عَمَا لَسْتُ نَائِلُهُ وَأَكْشِفُ الْمَازِقُ الْمَكْرُوبِ غُمَّتَهُ</p>	<p>وسائلي القوم عن ديني وعن خلقي إذا سَمَا بَصُرُ الرَّعْدِيْدَةِ الْفَرْقُ^(٢) وعاملُ الرُّمَحِ أَرْوِيهِ مِنَ الْعَلْقِ^(٣) تَنْفِي الْمَسَابِيرِ بِالْإِزْبَادِ وَالْفَهْقِ^(٤) وإن ظَلِمْتُ شَدِيدُ الْحَقْدِ وَالْحَنْقِ^(٥) وَأَكْتُمُ السَّرِّ فِيهِ ضَرْبَةَ الْعُنُقِ^(٦)</p>
---	--

- (١) أبو محجن الثقفي: ديوانه ص ١٥ صنعة أبي هلال العسكري تحقيق د. صلاح الدين المنجد.
- (٢) سرة القوم: خيارهم، وسما بصره: شخص من الفرع وبقي مبهوتاً، والرعديدة: الجبان والهاء فيها للمبالغة، والفرق: الفرع.
- (٣) النحلة: العطية، وقد جعل أبو محجن ما نال السنان من الدم نحلة، وعامل الرمح: قصبته، وهو على قدر ذراع من السنان، والعلق: الدم.
- (٤) الطعنة النجلاء: الواسعة، العُرْضُ: الناحية والظعن عن عرض: المقصود به اختلاسها وهو محمود ممدوح عندهم، والمسابير: جمع مسبار: وهو الميل الذي تقدر به الجراحات، والفهق: كثرة الدم، ونفي المسابير بالإزباد والفهق: أي أن الطعنة لعمقها وما يزيد منها من الدم ترو من قبها من يحاول سيرها.
- (٥) الإياسة: اليأس، والحنق: الغيظ.
- (٦) المازق: المضيق في الحرب، والمكروب: الكارب، وغمته: ضيقه وشدته.

قد يُقْتَرُ المرءُ يوماً وهو ذو حَسَبٍ وقد يَثُوبُ سَوَامُ العَاجِزِ الحَمِيٍّ^(١)
 قد يَكْثُرُ المَالُ يوماً بَعْدَ قَلْتِهِ ويكْتَسِي العودُ بَعْدَ الجَذْبِ بالوَرِقِ
 وقد أَجودُ وما مَالِي بذي فَنَعٍ وقد أَكْرُ وِراءَ المُجْحَرِ البَرِيقِ^(٢)
 وأَهْجُرُ الفِعْلَ ذا حُوبٍ وَمَنْقَصَةٍ وأَتْرُكُ القَوْلَ يَدِينِي مِنَ الرَّهَقِ^(٣)

والآيات تنبض بالقيم الخلقية الإسلامية، ومفتاحها في المقولة التي رواها أبو هلال العسكري عن الشعبي، قال: «فلم يكن في الحي فتى لا يحفظ هذه الآيات فتعد مروءة له»^(٤).

والمروءة في حديث الرسول ﷺ مخصوصة بالعقل، فعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «كرم الرجل دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه» وفسر ابن حبان هذا الحديث بقوله: «صرح النبي ﷺ في هذا الخبر بأن المروءة هي العقل، والعقل اسم يقع على العلم بسلوك الصواب واجتناب الخطأ، فالواجب على العاقل أن يلزم إقامة المروءة بما قدر عليه من الخصال المحمودة، وترك الخلال المذمومة»^(٥).

فقد عدَّ أبو محجن معيار تقويم الإنسان دينه وخلقه وليس ماله وثروته، ثم فخر بشجاعته ومواقفه القتالية في الدفاع عن الحريم والصبر على مراس العدو، ومدافعته عند اللقاء وتفريج الكريات والمضائق عند الحرب، وهو يكره الظلم ويحقد على الظالمين، وأتبع ذلك بذكر مآدح لبعض أخلاقه بأنه رجل عفيف عاقل يرضى بما قسم الله له فلا يطمع فيما لا يناله، ويأس منه يأساً عفاً لا قنوط معه ولا كفر، ويحافظ على من يستودعه سره، ويكتمه كتماناً لا يوح فيه، بل إنه يضحى بنفسه دون إذاعته.

(١) الاقتار: الإقلال، الحسب: مناقب الإنسان وآبائه، وثوب: يكثر، والسوام: المال الراعي.

(٢) ذو فنع: ذو كثرة، والمجحر: المضيق عليه في الحرب، والبريق: الشاخص البصر.

(٣) الحوب: الإثم، والرهبق: العرامة والخبث.

(٤) أبو هلال العسكري: ديوان أبي محجن ص ٢٢.

(٥) أبو حاتم بن حبان: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ٢٢٩.

ويتجافى عن الإثم، ولا يلزم بالخبائث والفساد، وهو بعد ذلك جواد كريم على الرغم من إقلاقه في المال.

وهذه الخصال جماع العقل والمروءة التي اختلف الناس في كفيتهما، من ذلك قولهم إنها التباعد من الخلق الدني، أو أن يعتزل الرجل الريبة، فإنه إذا كان مريباً كان ذليلاً، وأن يصلح ماله، أو أنها سخاوة النفس وحسن الخلق، أو العفة والحرفة، أي يعف عمّا حرم الله، ويحترف فيما أحل الله^(١) وقال معاوية: المرءة: احتمال الجريمة، وإصلاح أمر العشيرة^(٢).

وتجمع القصيدة إلى هذه القيم الخلقية الإسلامية الرفيعة أداءً جمالياً في الأسلوب، ففيها دقة في التعبير، واقتصاد في التصوير، إذ عبر بالمضارع الثابت المستمر عن المعاني المتمكنة في سلوكه وفي دائرة إرادته، مثل أعطي السنان، أظعن الطعنة النجلاء، أكشف المأزق أهجر الفعل ذا حوب ومنقصة، وساق بأسلوب الشك والتردد الأفعال الخارجة عن تمكنه، المسندة إلى الغير لتردد التصديق، أو الواقعة في علم الغيب لاحتمال الوقوع كقوله: قد يعلم الناس أنا من سراتهم... (البيت)، قد يقتر المرء، قد يثوب سوام العاجر، قد يكثر المال.

والتشبيه البسيط التركيب هو الوحدة المعبرة عن إحساس أبي محجن في فخره وثنائه على نفسه، وهذه البساطة في التصوير قربت المجاز من الحقيقة في الاستعارة والتشبيه كما في قوله:

أعطي السنان غداة الروع نحلته وعامل الريح أرويه من العلق
وقوله: تنفى المسابير بالأزباد والفهق، وقوله: وأكشف المأزق المكروب غمته
وقوله:

(١) المصدر نفسه ص ٢٣١.

(٢) الحصري: زهر الآداب ٩٠/١.

قد يكثر المال يوماً بعد قلته ويكتسي بعد الجذب بالورق

ولهذا الإحسان في المعنى والمبنى «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفضل هذه الأبيات ويتهم رأيه فيها فلا يذكر ذلك، إلى أن قال لعلي بن طالب كرم الله وجهه: من أشعر الناس؟ قال: الذي أحسن الوصف، وأحكم الرصف، وقال الحق: قال: ومن هو؟ قال: أبو محجن في قوله: «لا تسألني الناس عن مالي وكثرته». قال: أيدتني يا أبا الحسن أيدك الله. فما زلت مؤيداً في كل خير. ثم قال له: قد صدق في كل ما ذكر، لولا آفة كانت في دينه من حبه الخمر، ولقد تركها أنفأ، والأنف من الكرم، والكرم من الإيمان، لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عَنِ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ فقال عمر رضي الله عنه: يا بئى الله يا بني هاشم إلا أن يسودكم في الدين والدنيا»^(١).

(١) أبو هلال العسكري: ديوان أبي محجن الثقفي ص ٢٢.

